

(الاسس الفلسفية للحدائثة)

لمؤلفة سماحة سماحة السيد صدر الدين القبانجي

قراءة السيد عبد اللطيف العميدي

لقد شغلت الساحة الفكرية منذ مطلع القرن الماضي وحتى وقتنا الحاضر بجملة من الافكار والتصورات والنظريات التي تبناها مجموعة من المفكرين سُمُو فيما بعد بالحدائثيين ، كأمثال (جان بول سارتر ، وديكارت ، وفريدريك نيتشه ، ومحمد أركون ، ومارتن هايدجر ، ونصر حامد أبو زيد وطه حسين وغيرهم) فبعض هؤلاء ذهب بهم افكارهم الحدائثية الى مديات بعيدة ليدخلوا قراءهم في متاهات المادية والتي فرضت نفسها كتحدٍ كبير للمفكرين الاسلاميين ، وهؤلاء الحدائثيون ومن خلال الاطلاع على كتاباتهم على نوعين :

حدائثيون ماديون يجاهرون في تحدي الفكر الديني الحدائثيون الاسلاميون الذين حاولوا اخضاع النص الالهي والنبوي للتجربة البشرية وللحقائق المادية الصرفة ، ومن أولئك (د. عبد الكريم سروش ، وشبستري من ايران ، ود. محمد اركون ود. محمد سبيلا ، ود. نصر حامد أبو زيد وغيرهم) وبالمقابل فقد وجدنا القلة القليلة من مفكرينا وعلماننا ممن أتعب نفسه وأفرغ جهده في التصدي لأفكار هؤلاء ونقدها علمياً وفلسفياً ، وبرغم أنهم يعدون اليوم بعدد الاصابع الا ان كتاباتهم ونتائجهم الفكري جعلنا نفتخر بأننا يمتلك مثل هؤلاء المجددين والمفكرين ، ويقف في مقدمة هؤلاء فيلسوف العصر الشهيد السيد محمد باقر الصدر ، الشيخ الشهيد مرتضى المطهري وآخرون .

وكان من بين من تصدى مؤخراً لنقد الفلسفة الحدائثية تلميذ الفيلسوف الصدر المفكر الاسلامي السيد صدر الدين القبانجي (دامت بركاته) حيث شرع وعلى أكثر من مجال وصعيد لعرض المواضيع والمباني التي طرحها الحدائثيون تجاه الاسلام وشريعته ذاكراً أسسها ، ثم قام بنقدها نقداً موضوعياً وعلمياً مستنداً على ادلتهم هم . وقد تنوعت طرق نقده للحدائثة الفلسفية بين اصدار ثلاث كتيبات حملت عنوان (لمحات في نقد الفكر الحدائثي) ثم تبعه اصدار كتابه (الاسلام واشكاليات الحدائثة) ثم توجت جهوده الفكرية باصدار هذا الكتاب القيم والجميل في اخرجه ومضمونه ، فمن خلال اكثر من ثلاث سنوات استغرقها من المؤلف بين الاعداد له وكتابة مسوداته ، وبين محاضرات قدمها على طلاب الجامعة الاسلامية في النجف الاشرف ، واخرى قدمها لطلابه في الحوزة العلمية في النجف الاشرف زادت في

مجموعها على مائة محاضرة ، ثم تم تدوينها وصياغتها بما هو عليه هذا الكتاب الذي بين ايدينا ، وهي الدراسة الثالثة في هذا الموضوع ، والتي تتبنى الرد على موجتين فكريتين نمت مطلع القرن الماضي ، احداها : موجة تحمل عنوان التصالح مع الدين وتقديم قراءة أخرى له ، ولكنها قد تأتي على أهم اسسه ومقوماته ، وهذه الموجة هي التي تقودها (الحدائثة) باعتبارها قراءة جديدة للانسان وللكون والله تعالى ، وقد لا نجد في هذه الموجة عداءً صارخاً للدين ، كما هو الحال في الموجة والفكرة الثانية ، وكذلك لا نجد فيها حداً معلناً ، بل قد نقرأ فيها مواءمة وتقارباً مع الدين ، وهذه الموجة هي التي بدأت تتبلور وتعكس بظلالها على الواقع الاسلامي منذ النصف الثاني من القرن الماضي (العشرين) من خلال عمليات الترجمة الواسعة لكتاب وفلاسفة غربيين تبلورت لديهم الحدائثة بوصفها منهجاً لا يتقاطع مع الدين ولكنه يقدم رؤية في قراءة الانسان لله تعالى وللكون ، الى أن هزت الحدائثة شباك العالم الاسلامي وطرقت ابوابه .

ومن الطبيعي ان يثير مفكرونا غبار الجدل والنقاش والنقد لتلك الافكار في محاولة منهم لاعادة المفاهيم الى نصابها الصحيح ، فكانت للمفكر الاسلامي السيد صدر الدين القباني هذه المبادرة والتي قال هو عنها أنها لم تأت بجديد ولكنه أبداع في لملمة هذه الافكار والمناهج وعثر على أسس مشتركة فيها ، وعرضها في اطار ازمة الصراع بين الدين والحدائثة .

الكتاب يتألف من ٤١٥ صفحة ويشتمل على اربعة فصول ، من اصدارات مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي بلبنان .

ويلخص المؤلف نظرية كتابة الذي بين ايدينا في خمسة رؤى هي :

١ - أن الحدائثة هي منهج في البحث يعتمد على مجموعة أسس فلسفية هي (مبدأ النزعة الانسانية ، والعقلانية ، والتطور العام).

٢ - أن الاسلام لا يقف موقفاً مضاداً لهذه الاسس الحدائثة بل يقبل منها مدليلها المعتدلة ويرفض مدليلها المتطرفة .

٣ - أن الكتاب يرى بأن الحدائثة باعتبارها منهجاً في البحث تقف على الحياد في مسألة (الايمان والكفر) ولا تصنف لمصلحة مدرسة عقائدية معينة فهي مثل الادوات العلمية والقياسات المنطقية .

٤ - يرى الكتاب أن محاولة ايجاد مصالحة بين الحدائثة والاسلام من خلال التصرف في الثوابت الاسلامية ، وهي محاولة ايجاد مصالحة بين الحدائثة والاسلام من خلال التصرف في الثوابت الاسلامية ، وهي محاولة باطلة ، لانه لا يوجد اصلاً تصادم بين الحدائثة

والاسلام ، أما القراءة الخاطئة للحادثة هي التي افترضت ذلك التصادم . ٥ - أن الاسلام يعتقد أن الانسان ومن أجل أن يحافظ على (نزعتة الانسانية) لا يمكن أن ينفصل عن الله تعالى ، كما لا يمكن له أن يحتفظ بـ (العقلانية) بعيداً عن وحي السماء ، فالله والانسان ، والعقل والوحي هما الثنائي الذي تتكامل به الصورة من كل أبعادها ، ثم ان مبدأ التطور العام في الكون لا يعني تطور الحقيقة ولا القيم الانسانية ، فالحقيقة تبقى هي الحقيقة ، والقيم الانسانية تبقى ، الامر الذي يفسر قدرة الشريعة الاسلامية على مواكبة الواقع الاجتماعي للإنسان ومعالجته .

فالمؤلف هنا وفي مقدمته للكتاب يوضح للقارئ المسارات والرؤى التي استشفها لمنهج الحدائين وأسسه الفلسفية والتي تلخص حقيقة فكرهم ، فيما وظف المؤلف كتابه الجديد القادم (أزمة الدين والحادثة) لبيان بطلان ما ادعي انه تصادم بين الاسلام والحادثة ، أما الحادثة بوصفها منهجاً فلسفياً فهو ما يسعى المؤلف لدراسته في ابحاث هذا الكتاب دراسة مقارنة ومن وجهة نظر اسلامية .

ويؤكد المؤلف : أن هنالك ثوابت فلسفية كانت بمثابة المنطلقات والاسس والجذور لكل المنتج الفلسفي الحدائي وهي تحتاج لفحص ومحاولات تنقيب في المنظومة الفلسفية الحدائية ، فالحادثة بنظره لا تمثل مدرسة فلسفية واحدة بل هي مجموعة فلسفات واتجاهات في فهم الكون والحياة والانسان وقد تبدو مختلفة مع بعضها احيانا ، والاسلام بأعتباره ديناً وشريعة لا يتدخل في ما هو من اختصاص العلم ، وانما يتدخل في ما هو من شأن الفلسفة وما هو من شأن الشريعة والقانون .

ثم وبعد المقدمة والمدخل يشرع المؤلف في التمهيد الى تعريف الحادثة بمفهومها الفلسفي ونشأتها والتي احتوت على اكثر من تعريف ووصف ، حيث يورد (١٦) تعريفاً ووصفاً ، ثم يورد محاولات بعض العلماء في تعريفها كالدكتور سامي أدهم والدكتور محمد سبيلا والدكتور باسم خريسان ، الا ان المؤلف يسجل على تعاريفهم انها ليست تعريفاً للحادثة كما هي على الارض بل كما يرغب بها أهل الدين ، ثم يقدم المؤلف محاولة أخرى في تعريف الحادثة اكثر ملاءمة لجوهرها وهويتها ، فيقول أنها (منهج في تكوين الرؤية الفلسفية للوجود يبني على أساس محورية الانسان ، واعتماد العقل وقانون الحركة والتطور في الوجود) .

ثم يشرع المؤلف لبيان اسس المنهج الحدائي ، وبأن الحادثة منهج محايد في روحه وواقعه ، و يبين هوية الحادثة ومجالاتها ، كما ويتناول في كتابه ص ١٤ الجذور التاريخية للحادثة ، هذا كله في مدخل الكتاب والتمهيد ، أما في الفصل الاول فيتناول سماحة المؤلف مبدأ

النزعة الانسانية في ثلاث مباحث (عرض وتحليل، ونقد وتقييم، ورؤية اسلامية) مبيناً النقد العلمي لهذه النزعات من خلال ايراد مبادئ كل مدرسة من مدارسها ، فيما ختم الفصل ببيان النقد الاسلامي للنزعة الانسانية وذكر الجوانب المعتدلة التي يمكن استخلاصها من هذه النزعة ، ومنها (تحرير الانسان من الخرافة ، وتحفيز ارادة الانسان لصنع المستقبل، والدعوة للسيطرة على الطبيعة ، واعتماد العقل والتجربة البشرية ، والاعتراف بقصور الادراك البشري ، وان القانون والشريعة لخدمة الانسان) ثم يود الجوانب المتطرفة لهذه النزعة وهي (القطيعة مع الله ، والقطيعة مع الآخرة ، والقطيعة مع القيم الاخلاقية) ثم يطرح المؤلف الرؤية الاسلامية لكل مفردة من هذه المفردات .

أما في الفصل الثاني فيتناول المؤلف سماحة السيد القبانجي مبدأ العقلانية من خلال مباحث أربع هي (العقلانية تعريفاً وجذوراً تاريخية ، والعقلانية مداليل ومعطيات اضافية ، والعقلانية تقييم ونقد ، والعقلانية رؤية اسلامية) مؤكداً في ايراده للرؤية الاسلامية : أن الاسلام يولي الاهمية الكبرى للعقل بأعتبره طريق المعرفة الصحيحة ودعا الى اعتماده في كل معلومة ، وان الفكر الاسلامي يحتفظ - الى جانب حرية النقد العلمي - بجانب التقديس في العقيدة وجانب التعبد في الشريعة ، وبأن هنالك مصدر ثاني للمعرفة الى جانب العقل وهو (الوحي الالهي) وبأن العقل البشري قادر على معرفة القيم الاخلاقية بما تعبر عن واقعية واصالة، وان المعرفة البشرية تبقى في هذه الدنيا معرفة ناقصة ونسبية . وفي فصل الكتاب الثالث يبحث المؤلف مبدأ الحركة وقانون التطور العام في مباحث ثلاث هي:

١ - التدايعات الفلسفية لمبدأ الحركة وقانون التطور.

٢ - نقد التفسير المادي للكون.

٣ - نقد التفسير الوجودي للكون. طارحاً في هذه المباحث رؤية الاسلام من منظور علمي مستعرضاً عشرات من الشواهد القرآنية بهذا الخصوص، مستشهداً كذلك بمقطوعة نثرية للعالم والعارف الاسلامي جلال الدين الرومي.

أما في فصل الكتاب الرابع والآخر فيتناول سماحة المؤلف التفسير الديني للكون واضعاً بحثه الشيق هذا في اصول ثلاث:

الاصل الاول وهو خالق الكون، والاصل الثاني بحث العلاقة بين الخالق والمخلوق ، والاصل الثالث العودة الى الخالق وهو الله تعالى، واضعاً اصابعه على نقاط الاتفاق والاختلاف بين الرؤية الاسلامية للكون وبين الرؤية الحدائثية، منها : الرؤية الواقعية للاسلام في الوجودات ، وان الفلسفة والرؤية الاسلامية هي فلسفة يقينية وعقلانية معتمدة

على أدلة التناسق والغائية في الوجود الكوني ، وبأن الكون ليس قديماً بدليل قوله تعالى (أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها..) وبأن التفسير الديني يؤكد أن الكون لم يولد بشكل دفعي بل مرّ بمراحل تطوّر استغرقت دهوراً ، وان هذا الكون بالضرورة يحتاج الى خالق ، بل ان كل القوانين الطبيعية تستبطن في صميمها الوعي والطاعة للخالق ، وان الشاهد على ذلك هو نفس قانون التطوّر ، وان الله تعالى قادرٌ على تجاوز القوانين ، كما في قوله تعالى (وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الارض) فا الله تعالى لديه كل صفات الكمال ولا يحتاج الى علة ولا يفعل الشر كونه قبيح وهو منزّه عن كل القبائح ، مضافاً أنه تعالى ملتزم بالقيم الاخلاقية والالتزام هذا هو من الزمه على نفسه ، ثم يؤكد المؤلف وجود العناية التعليمية من قبل الخالق لخلقه وانه منح الموجودات هديها نحو التكامل عن طريق دور الانبياء وصولاً بالشريعة الاسلامية الخاتمة والتي تعتبر لطف الهي ترشد البشر للقرب الى الله وهي علة خلقهم.

ويختم المؤلف فصله هذا ببيان حقيقة العودة الى الله تعالى سواءً العودة الكونية الكبرى أو عودة الانسان الى الله ، ثم يشرح كل من العودتين بأعتبارهما ضرورة واقعة وحتمية ، وصولاً لمشهد الحياة الابدية في قوله تعالى (يا ايها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي).

ان قراءة معمقة لهذا الكتاب الثر لتعطي قارئه شعوراً ومحفزاً لتحريك فكره والامام بآخر ما توصلت اليه تجارب وعقول المفكرين والمجددين ، مضافاً بأن قراءة هذا الكتاب تعطيك شعوراً بالاعتزاز ايضاً في ان حوزة النجف الاشرف لازالت تنجب المفكرين المتنورين والذين استطاعوا مواكبة النتاج الفكري الحديث والرد على الفكر الضال منه رداً علمياً ، كم أنك لتحس أن في الكتاب لسحراً يشدك لمتابعة قراءته من الغلاف الى الغلاف.